الموت في شعر أبي تمّام الطائي

د. سالم محمد ذنون*

ملخص البحث:

ظلت إشكالية الموت في هذا الوجود تخامر شعور الانسان في كل زمان ومكان، فظل الموت يطارد الانسان أينما توجه، لذلك راح يسعى جاهدا يبحث عن علاج لهذا الداء الذي لادواء له.. إن الموت حقيقة واحدة في كل العصور، عرفته كل الأمم والشعوب، ذلك أنه سنّة الله في خلقه التي لن تجد لها تبديلا ولن تجد لها تحويلا، إلا أننا عندما نتناول الموت في شعر أبي تمام فذلك يعني أن الموت أخذ بعدا آخر لدى الانسان هذا البعد مستمد من مباديء الإسلام، إذ لم يعد الموت كما كان يتصوره إنسان ما قبل الاسلام حينما اعتقد أن حياته يعيشها ويقضي فيها مدته حتى يهلكه الدهر. فجاء الاسلام وأنار الفكر الانساني وصحح هذه النظرة المنحرفة فكشف عن حقيقة الموت، إذ يغدو الموت للإنسان المسلم ولادة جديدة تتجاوز به عن ماديته التي كان عليها في الحياة الدنيا ليتسامى إلى روحانية بحتة في عالم الأرواح.. من هنا ارتأينا أن نبحث في هذا الموضوع في شعر شاعر اختمرت عقليته وصقلت أفكاره بحكم تجربته العميقة في الحياة إنه شاعرنا أبو تمام الطائي؛ إذ نجد في نصوصه معنى الموت يأخذ جوانب ثلاثة تتمثل بحتمية الموت، والإقبال على الموت، ووجه آخر للموت. فهذه الجوانب الثلاثة تكشف عن رؤية أبي تمام للموت.

Abstract

The research is entitled "Death in abi Tammam Al Taee poetry" . It tackles the vocabulary of death in the Islamic sense in Abi Tammam's poetry. Islam has corrected the ancient wrong view of death.

The view holds that man lives his life and this life is put to an end by time. Islam has brought its view.

* مدرس/ قسم اللغة العربية/ كلية التربية.

This Islamic view holds that the muslim perceiver life an interral of an other new life which transcends the material. It emphasizes the world of the spieits.
Abu Tammam s poetry was researched. It has been found out that Abu Tammam was a poet of aprofound exoerience within the level of mind and emotion. It has been concluded that death . Has three facets in his poem : the inevitability of death , willingness to death , and another facet.
These three facets uncover Abi Tammam s view of death.

توطئة:

الموت مشكلة الانسان العظمى في هذا الوجود، فان كان الانسان قد اكتشف الحلول لمعظم مشاكله، فقد استعصى عليه اكتشاف حل لمشكلة الموت، ولا يخاف الانسان من شيء قدر خوفه من الموت، فهو يسلب منه أقرب الناس إليه، أهله، أبناءه، أصحابه، أحبابه، وبالتالي يسلب حياته، فالموت هو الفراق الأبدي عن هذه الحياة، وعلى الرغم من تمكنية الموت من الانسان، فان الانسان لم يقف في بعض من مواقفه مستسلما له، بل جابهه ورفضه وقاومه بشتى الأساليب، فمن الناس من يحاول ان يواجه الموت عن طريق القوة ظانا بأنه سيتغلب عليه، ناسيا أو متناسيا أن " الموت ليس مجرد تفكك، الموت قوة فعالة متماسكة تواجه الانسان"(١). وهناك من الناس من يدفعه يأسه من الحياة ومصاعبها إلى تمني الموت، لأن الموت سيمثل له عنصر الخلاص والنجاة من الحياة ؛ إذ " ان تمني الموت ينشأ عندما تنتفي جميع مجالات الخيار والاستبدال، فهو لا ينبع من أي شر معين ولكن من يأس كامل: عندما يصبح الألم ملحا وشاملا حتى انه ليميت كل شعور آخر ولا يبقى هناك أي منبع للعمل إلا البغضاء والنفور، عندما ينقطع كل خط للرجعة وتداهم الشرور الانسان وتحاصره حتى ان الرفض الشامل يحمل له بركة ويمنا أكثر من أي مأمل ايجابي. وترى عبارات الرفض (لا، ليس هذا)، و(ليس ذاك) التي يوجهها إلى كل درجات الدائرة تجمع نفسها في رغبة بالعدم الشامل"(٢). والموت له صلة وثيقة بالحياة، بل انه بدون الحياة لا يوجد هناك موت، فالحياة هي الظاهرة الدالة التي يثبت الموت وجوده وكيانه عن طريقها، على الرغم من أنه تجاوز لها، إذن فان " الموت جزء من الحياة وانه ليس مضادا لها. فلكي تكون النظرة إلى الموت صحيحة يجب ان نجعل الموت جزءا من الحياة"(٣). ومن هنا اصبح الموت والحياة يسيران في خطين متوازيين ويتقاطعان بفعل الموت الذي يوقعه على الكائنات الحية، فالصراع دائر ومحتدم بين الحياة والموت، من جهة، وبين الانسان ووجوده بما فيه الحياة

والموت من جهة أخرى، ولكن على الرغم من محاولات الانسان جاهدا في تخطي مشكلة الموت، إلا أنه كان دائما الخصم الخاسر في هذه المواجهة الكونية التي تخرج عن طوق ارادته، وتتجاوز حدود امكانياته، " فالموت هو الوجود الثاني الذي تصل إليه الحياة بعد نضالها وبقائها على الجسر الذي يصل بين قطبي الوجود، الخلق كحياة والموت كحياة. وبما ان الانسان متصل بالخلق فهو متصل بالموت. ولما كان الموت أو الفناء يعني التحول، وكان التحول يعني عملية لتحقيق الحياة، لذلك فان الموت حياة، وهكذا يحيا الانسان على جسر يصل الأبدية بالأبدية"[٤].

وقد ارتبط الموت عند بعض الناس كذلك بمفهوم الحرية ؛ إذ وجدوا في الموت تحررهم من كل قيود الحياة، وأعبائها وبذلك اصبح الموت عندهم حالة طبيعية لا تستوجب الخوف والقلق، ولعل سقراط كان أول فيلسوف اتخذ مثل هذا الموقف، حين تجرع السم راغبا في الموت وليس مكرها عليه ؛ إذ ما زال إلى يومنا هذا يعد سقراط المثال الأول على الشجاعة وتقبل الموت بوصفه حالة ايجابية، تقود إلى الحرية بفعل التحرر، إذن " الموت والحرية مرتبطان أوثق ارتباط، وقدرة الانسان على ان يموت هي أعلى درجة من درجات الحرية"[٥]. ومن هنا فقد اصبح الموت مشكلة الوجود كله، لذلك نجد الشعراء تطرقوا بكثرة إلى موضوع الموت، وعالجوه من زوايا مختلفة، تعتمد على تباين رؤاهم في قضايا الكون عامة، وقضية الموت خاصة، فمنهم من اتخذ موقفا سلبيا من الموت فالتجأ إلى ركن معتم خوفا من أن تطاله أيدي الموت، ومنهم من يأس من الحياة وتعقيداتها فراح ينشد الموت كنوع من الراحة، ومنهم من اتخذ موقفا ايجابيا تجاه الموت، فجابهه وقاومه بل ورفضه، لا من باب الخوف منه، بل من باب كسر شوكته، وقد كان شاعرنا أبو تمام واحدا من هؤلاء الذين جابهوا الموت، ولم يهربوا منه، فأبو تمام " من واقع مرتكزه الفكري الاسلامي – لم ينظر للموت نظرة الجزع الذي يشل عن الحركة، والخوف الذي يدمر الحياة"[٦]، بل نظر إليه من منظور الفيلسوف الذي غمرته تجاربه الحياتية، فصار أبو تمام والموت كأنهما صديقان، فهو من خلال هذه الصداقة كان يعبر عن موقفه تجاه الموت الذي طالما سلب منه أصحابه، وأهله وأحبابه، فعلى الرغم من غدر الموت به، فهو لم يستسلم له بل كان يسخر منه ويستهزئ به، ومن المعروف ان أبا تمام " كان على صلة حميمة بالموت، فقد كان انسانا مرزّأً عرف الموت في أوقات مبكرة، وظل على صلة وثيقة به لمرضه. إلى حد ان الموت اصبح مشكلة هامة بالنسبة له، وعلى كل فاللحظة التي يصبح فيها الموت مشكلة بالنسبة لانسان ما، يكون هذا الانسان قد بلغ درجة قوية من الشعور بالشخصية وبالحضارة "[٧].

(١) حتمية الموت:

إن أبا تمام بإيمانه بالموت استطاع أن يتخطى هذه المشكلة بصورة ايجابية، جعلت من الموت هذا الوحش المخيف، حملا وديعا ضعيف الشكيمة أمام إرادة وتصميم الشاعر، ومن هنا كانت " محاولة الخلاص من اغتراب الموت ممكنة كما هي ممكنة في الحياة عن طريق الثورية. وامكانيتها بعد الموت تتلخص في أن الموت ليس العدم ولا يساويه. الموت نهاية مرحلة زمنية معينة ولكنه قد يكون بداية امتداد خارج الزمن وخلود. ألم يخلد من قبله شعراء ومفكرون؟"[٨]. كما خلد أبو تمام في ذاكرة الناس عامة. والقراء والمثقفين على وجه الخصوص..

يقول أبو تمام[٩]:

كـــل داء يرجـــى الـــدواء لـــه إلا (م) الفظيعـــين: ميتـــة ومـــشيبا

فالشاعر يرفض الموت، لأنه داء يصيب الانسان ولكنه يختلف عن الأدواء الأخرى، من حيث أنه لا يرجى له دواء، فهو داء يقتلع الانسان من هذه الدنيا. فنلاحظ أن رؤية الشاعر في رفضه للموت تتأتى من جهة كونه الداء الذي يفرق الانسان عن أهله وأحبابه وأصحابه، ويتأكد هذا الرفض في وصف الشاعر للموت والمشيب بـــ (الفظيعين) كناية عن استبدادهما بالانسان بالرغم عنه، وليس لهما أي علاج أو دواء.. إذن.. فأبو تمام يواجه الموت، لأنه لا يعطي الانسان فرصته في العيش، فالموت يسرق الانسان من وجوده، فنلتمس في بيت أبي تمام إحساسه بالفجيعة واليأس أمام جبروت الموت، ومن خلال ذلك يتبين " أن الغرض الأساسي التأملي الذي يمكن ان نرجع إليه تفجع الشاعر ووعيه بعيشة الحياة انما هو الموت، لا ينفك الشاعر من إثارة هذا المعنى في فترات عديدة ومنقطعة لينزله المنزلة الكبرى في جهاز تفكيره"[١٠].

فيقول[١١]:

وهـــو غـــض الآراء والحـــزم خـــرق ثـــم غـــض النـــوال غـــض الـــشباب

قـــصدت نحـــوه المنيـــة حتـــى وهبـــت حـــسن وجهـــه للتـــراب

تتمظهر صورة الموت هنا من خلال استلابه شخص الممدوح الذي حمل جميع الصفات الحميدة من إصابة الرأي، وقوة الحزم، والكرم، والرجولة، فنلتمس مدى كراهية الشاعر للموت ورفضه له من خلال تصويره للمنية وكيفية قصدها للممدوح سالبة روحه ووجوده لتهب رونقه وبهاءه للتراب، كناية عن القبر.. فجعل من المنية كائنا حيا مثل الانسان في كونه يهب للآخرين عطاياه،

ولكن الفرق هو ان المنية لا تهب العطايا للانسان، بل تسلب الانسان وتهبه للأرض، للتراب، للقبر.. فنلاحظ سير المنية، وكأنها سير طالب للعطاء من الممدوح.

وفي النتيجة لم يبق من الممدوح سوى الذكرى، وهذا ما دفع الشاعر إلى الإيمان بالموت على الرغم من أن الموت سرق ممدوح الشاعر الذي كان يجزل له العطايا التي تمثل رمز الاستمرار في الحياة، فما انقطاع الممدوح عن هذه الحياة سوى انقطاع لمصدر العطاء، ومن ثمة هو انقطاع للحياة نفسها.. ويستمر الشاعر في تصويرالموت الذي يسلب أصحابه وأحبابه.. يقول أبو تمام[١٢]:

لقد شرقت في الشرق بالموت غادة تعوضت منها غربة الدار في الغرب

وألبسني ثوبا من الحزن والأسى هلال عليه نسج ثوب من التـرب

أقول وقد قالوا: استراحت بموتها من الكرب روح الموت شر من الكرب

انه عزيز آخر على قلب الشاعر، وقد سلبه الموت من الحياة إنها حتمية الموت الحقيقة التي يجب أن لا يغفل عنها انسان، وقد جعل الشاعر من الموت غصة شرقت بها هذه المرأة، ولفظة (شرقت) كناية عن الروح حينما تصل الحلقوم، فالشاعر أخذ المعنى من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ۞وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾[١٣] فبلوغ الروح الحلقوم، هو كالغصة في الحلق، ولم يكن من نتائج الموت أنه اختطف عزيزا على قلب الشاعر فحسب، وانما دفع ذلك بالشاعر إلى النزوح والتغرب عن دار المحبوب فغادر غربا، ودار هذه المرأة في الشرق، فهنا موتان، موت تمثل بمفارقة هذه المرأة للحياة، وموت تمثل بنزوح الشاعر عن داره بعيدا.. ثم يستعير الشاعر للحزن والأسى على موت هذه المرأة ثوبا ألبسه إياه القبر الذي دفنت به هذه المرأة وقد استعار للقبر لفظة (هلال) عليه ثوب مطرز من التراب.. ويتبلور رفض الشاعر للموت في رده على الذين قالوا بأنها استراحت في موتها من الغم والهم، إذ قال: (روح الموت شر من الكرب)، فهنا يتجسد موقف أبي تمام الرافض للموت، فالموت عنده شر من الغم ومن الهم، فغدا الموت مشكلة بالنسبة للشاعر، وهذا طبيعي، ذلك ان أبا تمام شاعر متأمل للحياة عارف بمعاناتها ومآسيها، إذن، فان " اللحظة التي تؤذن بأن هذا الانسان قد بلغ درجة قوية من الشعور بالشخصية، ومن ثم قد بدأ يتحضر. ولهذا نجد ان التفكير في الموت يقترن به دائما ميلاد حضارة جديدة"[١٤]. وهذا واضح تماما في شخصية أبي تمام.

فنحن نلاحظ نقطة الافتراق بين الرجل والمرأة وبين الشاعر والموت، فالموت سلب حياة المرأة، فظلت حياة الشاعر خاوية ؛ واصبحت مستلبة فغدا الشاعر ينشد الغربة عسى ان تعوضه عما فقده. وكتعبير عن موقفه من الموت، فاتجاه الشاعر يعاكس اتجاه الموت، ويفترق عنه.. ويقول:[١٥]

يا موتــة لــم تــدع ظرفــا ولا أدبــا الا حكمـــت بـــه للحـــد والكفـــن

لله ألحاظـــه والمـــوت يكـــسرها كأن أجفانـــه ســكرى مــن الوســن

يـــرد أنفاســـه كرهـــا وتعطفهـــا يد المنيــة عطــف الــريح للغــصن

يخاطب الشاعر الموت بلهجة نستشعر فيها لأول وهلة وكأنه عتاب خفيف، إلا اننا بعد شيء من الامعان نجد أن الشاعر إنما يؤنب ويتهجم على الموت، لأنه لم يترك انسانا حسنا إلا أرداه إلى الكفن واللحد، ثم ما يلبث الشاعر أن يلين وهو يصف حال الممدوح في مرض موته فنظراته يكسرها الموت كناية عن ذبولها، فيأتي بصورة جميلة معتمدا التشبيه فيها حين يشبه نظراته الذابلة، وأجفانه بالسكران، ولكنها ليست سكرى بالنبيذ ولا بالخمر، ولكنها سكرى من الوسن الذي يلفها. ويصور التقاط الممدوح لأنفاسه الأخيرة، بأنه يفعل ذلك كرها ؛ إذ ليس في يده شيء، ويشبه كيف أن المنية تعيد أنفاسه إليه كما تفعل الريح بالغصن حينما تحركه يمينا وشمالا.. وقد لا نجانب الصواب إذ ما قلنا ان استخدام الشاعر لأكثر من صيغة للفظة (موت) هو تأكيد على رفضه له، فهو تارة يقول: (يا موتة)، وتارة أخرى يقول: (الموت)، وتارة ثالثة يقول: (المنية)، ولهذه التعددية في مخاطبة الموت انتزاع لهوية الموت من قبل الشاعر، فمثلما نفى الموت الممدوح عن هذه الحياة، كذلك الشاعر ينفي الموت نفيا قاطعا، لا بمعنى إنكاره وعدم الإيمان به، لا فليس ذلك ما يعنيه أبو تمام، وإنما هو يواجهه على سبيل من قوة الشخصية وثقة عالية بالنفس، ومن هنا " لم يعد النفي هو الشكل الذي تحتفظ الحياة خلفه بكل ما هو ارتكاسي فيها، بل على العكس الفعل الذي تضحي بواسطته بكل أشكالها الارتكاسية. ان النفي يغير معناه في الانسان الذي يريد الهلاك، الانسان الذي يجري تجاوزه، لقد أصبح مقدرة إثبات"[١٦].

(٢) الإقبال على الموت:

إن حضور الموت في صورته الايجابية لا يعني انه قد تعدى مرحلة رفضه من الانسان، في حين ان حضوره بهذه الصورة هو تأكيد ضعفه وانهزامه ومن ثمة هو صورة من صور مواجهته. يقول أبو تمام في ذلك[١٧]:

تـــــراه إلـــــى الهيجـــــاء أول راكـــــب وتحـــت صـــبير[١٨] المـــوت أول نـــازل

تتمظهر رؤية أبي تمام للموت من خلال صورة البطل الذي يكون أول من يمتطي فرسه إذا ما سار إلى الحرب، (وتحت صبير الموت أول نازل) وهنا يجب ان يقف القارئ متأملا هذه التراكيب اللغوية المشحونة بمعان خفية ؛ إذ ان هذه الاستعارة خلقت فجوات داخل البيت تتطلب من القارئ فك الرموز وملء هذه الفجوات، ففي قوله: (تحت صبير الموت) اشارة إلى فضاء المعركة ؛ إذ جعل للموت سحابا متراكما وبما ان البطل يكون تحت سحاب الموت فهذا يعني ان المقصود هو فضاء المعركة المليء بالضجيج والصخب وتلاقي السيوف، وتتطاير الرماح والنبال، وفي قوله: (أول نازل) تحتمل ان تكون دلالتها أول من ينزل إلى ساحة المعركة، وتحتمل أيضاً ان تكون أول من ينازل العدو ويصرعه. فهذه الاستعارات خلقت حذوفات في دلالة العبارة، وهذا ما يجعل النص مفتوحا لأكثر من تأويل ولأكثر من قراءة، فتجربة "التأويل تبحث أصلا عن المحذوف. المحذوف المحاور. كيف يتم الحوار دون تقدير المحذوف. المحذوف هو الشخص الثاني. آثر الصمت ولم يطق الصبر عليه فأومأ إلى نفسه من خلال جانب ثان صريح. هذا هو الحوار. هذا هو لب ما نسميه النحو، وما نسميه دلالة الكلمات"[١٩]. ويقول[٢٠]:

آل النبـــــي إذا مـــــا ظلمـــــة طرقـــــت كـــانوا لنـــا ســـرجا أنـــتم لهـــا شـــعل

يـــــــستعذبون منايـــــــاهم كـــــــأنهم لا ييأســـون مـــن الـــدنيا إذا قتلـــوا

ان الشاعر إذ يمدح قوما من بني هاشم يعودون في نسبهم إلى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، يعود بذاكرته إلى الوراء حينما كان آل النبي مصابيح للناس، والآن أصبح الذين يرجعون في نسبهم إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) الشعل التي تضاء بها المصابيح، ثم ان هؤلاء الناس اصبحوا يتلذذون بالموت، ولا يقود هذا القول إلى الظن بأن هؤلاء الناس يحبون الألم ويتلذذون به ؛ إذ لو ذهبنا هذا المذهب من التأويل لجانبنا الصواب ووقعنا في الخطأ، ذلك ان هؤلاء القوم اناس امتلكوا من الشجاعة القدر الذي جعلهم يواجهون الموت بكل جرأة وشجاعة، حتى كأنهم لا

يعرفون اليأس من الدنيا إذا ما قتلوا، فان تلذذ هؤلاء القوم بالموت هو صورة من صور رفضه ومنعه من التمكن منهم، بل يريدون هم ان يكسروا شوكته ويحاربوه مثلما يحاربون أي عدو، بل صار الموت طوع أيديهم فأخذوا ينزلونه بالأعداء ويلحقونه بالجبناء. ومن خلال ذلك يتضح لنا أن أبا تمام وحده "من بين شعراء جيله أنس بالموت فلم يخفه. ومادام الموت قريبا من كل انسان يخترم كل حياة فلم لا يتمناه؟"[٢١]، ولكن لا أظنه تمنيا نابعا من موقف يائس ذي رؤية ذاتية، بل هو تمنٍ يحمل في طياته رؤية الشاعر الكونية من خلال انه رفض للموت عن طريق الموت نفسه. فيقول[٢٢]:

فقد أنست بالموت نفسي لأنني رأيت المنايا يخترمن حياتيا

فيا ليتني من بعد موتي ومبعثي أكون رفاتا لا عليّ ولا ليا

اننا نظن لأول وهلة بأن الشاعر فعلا قد أنس الموت وألفه بحيث أصبحا صديقين، ولكن بعد امعان النظر في كلام الشاعر نلتمس عكس ذلك تماما، انها حالة من مواجهة الموت بالموت نفسه، فهو قد أنس الموت لكثرة ما اصابه فالمنايا تخترم حياته، فهو ليس أنس محبة وصفاء ولكنه أنس معاناة وشقاء ؛ إذ لا يعقل في أي زمان ولا مكان ان يكون هناك صفاء وأنس بين الموت والانسان، لأن وظيفة الموت قائمة على اغتيال الانسان وسلبه روحه. والذي يؤكد هذا قول أبي تمام نفسه حين تمنى ان يكون رفاتا بعد موته في الحياة الدنيا وبعد مبعثه يوم القيامة، فهو يرفض الموت عن طريق تحوله إلى حالة من العدم، (أكون رفاتا لا عليّ ولا ليا)، فالقارئ ليس معزولا عن ظرف معين، فهو بالتالي ليس معزولا عن فعل التفسير، فلا توجد امكانية لبلوغ مستوى من المعنى خارج أو دون التفسير. ولكن في كل ظرف لابد ان يظهر القارئ معنى معين يبدو له انه لا يمكن تفسيره لأنه مشابه تمام الشبه ببنية الظرف التأويلية ومن ثم ادراك القارئ[٢٣]. ويقول أبو تمام[٢٤]:

أكرمت سيفك غربه وذبابه عنهم وحق لسيفك الاكرام

فرددت حد الموت وهو مركب في حده فارتد وهو زؤام[٢٥]

يربط الشاعر مواجهة الموت بشجاعة الممدوح الذي عرفت فيه هذه الصفة، وهذا الممدوح رد حد الموت ؛ إذ جعل الشاعر في استعارته هذه للموت حدا وهذا الحد مركب في حد سيف الممدوح، وحينما رد الممدوح حد الموت بسيفه ارتد الموت سريعا (فارتد وهو زؤام)، ففي قوله:

(رددت حد الموت) تكمن بؤرة الرفض فيتضح لنا ان الموت مقبل على الممدوح في محاولة للنيل منه، ولكن شجاعة الممدوح وحزمه يأبيان إلا ان يردا الموت ويرفضانه فيرتد سريعا. وليس رفض الممدوح للموت الا صورة من صور رفض الشاعر للموت، فالشاعر يصف ممدوحه من خلال رؤيته هو، فهو الذي اتخذ موقفا مضادا للموت رافضا له، ذلك ان الموت يتضمن قضاء على كل فعل أولا، وهو نهاية للحياة بمعنى مشترك ثانيا[٢٦]، وهذا مما يحد من حرية الانسان إذا اتخذ منه موقف اليائس الخائف، والا فيجب على الانسان ان يجابه الموت ويواجهه بكل الوسائل المتاحة لديه. ويقول أبو تمام[٢٧]:

تــردى ثيــاب المــوت حمــرا فمــا أتــى لها الليل الا وهي مــن ســندس خــضر

لقد استعار الشاعر للموت ثيابا وأعطاها سمة بارزة بأن جعلها ذات لون احمر، وفي قوله: (تردى) اشارة إلى ارتداء هذه الثياب وقد اعطى للموت (ثيابا حمرا) كناية عن الدم، لأنه ليس موت عادي، ولكنه موت في ساحة الوغى، انه لون الشهادة الذي سيكسب لونا آخر كما في قوله: (فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر)، فنلاحظ ان في هذه العبارة تختفي رؤية رفض الموت وهذا ما نستشفه من السرعة التي يتغير فيها لون ثيابه من الأحمر إلى الأخضر، فالمعروف ان الشهيد يتغير لون الدم الملطخ في ثيابه إلى لون ثياب الجنة في لحظة دخول الليل عليه وهو في قبره، اما هذا البطل فقد انكسرت بحضرته هذه القاعدة حين تغير لون ثوبه إلى اللون الأخضر قبل دخول الليل عليه، فنلاحظ من خلال ذلك جملة أمور:

١. مكانة هذا الرجل في الاسلام، ومكانة الشهيد في الملأ الأعلى هو الذي عجل دخوله الجنــة حتى قبل حلول الليل عليه.
٢. رفض الموت وحب التخلص من اثاره والتطهر منه في أسرع وقت ممكن.
٣. نستشف من وراء الكلمات شخصية أبي تمام الثائرة على المــوت التــي تتعجــل الخــلاص منه، والفوز بالحياة الآمنة في الآخرة الخالية من فكرة الموت. فهي بالنسبة للــشاعر رؤيــة تطلعية من خلال رفض الموت..

فالحركة تبدأ من البطل تنتهي إلى مواجهة الموت الذي ينال من البطل ويكسيه لون الــدم ثيابا حمرا، وقبل دخول الليل وربما مازالت المعركة دائرة تخلع عنه ثياب الموت فيرتدي ثيــاب الخلود الخضراء / ثياب الجنة، وهنــا تحــضرنا الآيــة الكريمــة: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ

﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾[٢٨]. وفي النتيجة يعلن الانسان انتصاره على الموت على الرغم من قوة الموت الفائقة امام قوة الانسان الضئيلة.

(٣) وجه آخر للموت:

ولم يأت موقف أبي تمام هذا من الموت إلا من أجل إثبات وجوده في هذا الكون الفسيح، وعلى هذه الحياة، ومن صميم الواقع، فأبوتمام في رؤيته هذه يرى للموت صورة أخرى في الحياة،إذ هو يتمثل بصفة الفراق، بل يجعل الشاعر من الموت والفراق وجهين لعملة واحدة.يقول أبو تمام[٢٩]:

الموت عندي والفرا ق كلاهما ما لا يطاق

يتعاونان على النفو س فذا الحمام وذا السياق

لو لم يكن هذا كذا ما قيل موت أو فراق

يقترن الموت هنا بالفراق، لأن كليهما موت في نظر الشاعر، لذلك فهو يرفضهما على حد سواء، فالموت والفراق، (كلاهما ما لا يطاق)، وتحمل هذه العبارة من دلالات الرفض الكثير، فلفظة (لايطاق) تدل على ان الموت والفراق يشكلان عبئا كبيرا يفوق طاقة الانسان، وتستحضر هذه العبارة إلى ذهننا الاية الكريمة ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣٠]، ومن هنا يخرج الموت والفراق عن طاقة الانسان، وهذا ما دفع الشاعر إلى استخدام اللهجة الرافضة هنا، وعلى الرغم من ان الموت لوحده، أو الفراق لوحده مما يفوق طاقة الانسان فان الشاعر يصرح بانهما–الموت والفراق – يتعاونان على النفوس، لأن الجامع بينهما هو التفريق ولكن الفرق بينهما يكمن في طبيعة الفراق، فالموت فراق ابدي، بينما الفراق يقع في الدنيا بسبب الرحيل والهجرة. فيتبين من ذلك مدى تحمل الانسان، فهو لوحده يجابه الموت في حين ان الموت والفراق يتعاونان ضد الانسان، فيتبلور عن ذلك موقف الانسان الرافض للموت وللفراق، فالصلة قريبة بل صميمية بينهما، ويعبر الشاعر عن ذلك بقوله: (لو لم يكن هذا كذا) أي لو لم يكن الفراق كالموت لما قيل موت أو فراق. وفي جانب اخر من موقف أبي تمام تجاه الموت نجده في بعض اشعاره يستأنس بالموت بل ويتمناه، ولكن هل هذا يعني ان أبا تمام قد اوقع نفسه في تناقض ؟ وللأجابة على هذا التساؤل نقول: لم يكن أبا تمام يعاني انفصاما في شخصيته، ولم يكن مريضا يهذي، بل انه في تمنيه الموت واستئناسه به كان يرفضه ولكن بصورة اخرى لا تبدو مباشرة امام القارئ بل انه

رفض يكمن وراء الكلمات والحروف، وليس على القارئ سوى اعمال ذهنه امام اشعار أبي تمام كي يستشف الدلالات الكامنة وراءها.

مصادر البحث

١. أبو تمام وقضية التجديد في الشعر: د. عبده بدوي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ م.

٢. انسانية الانسان: رالف بارتون بري، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٦١ م.

٣. بحوث فلسفية: ندرة اليازجي، منشورات عويدات، بيروت – لبنان، ط ١، ١٩٦٩م.

٤. الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها: د.محمد حمود، دارالكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

٥. الحنين والغربة في الشعرالعربي الحديث:د.ماهرحسن فهمي،معهدالبحوث والدراسات العربية،١٩٧٠.

٦. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي،تحقيق:محمد عبده عزام،دارالمعارف،مصر،١٩٦٤–١٩٦٥.

٧. الرفض ومعانيه في شعر المتنبي:يوسف الحناشي،الدارالعربية للكتاب،المطبعة الثقافية،تونس،١٩٨٤.

٨. المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك:د.عبد العزيز حمودة،سلسلة عالم المعرفة،الكويت،١٩٩٨م.

٩. المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية: وليم راي، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ط١، ١٩٨٧ م.

١٠. الموت والعبقرية: د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت، ١٩٤٥م.

١١. نظرية التأويل: د. مصطفى ناصف، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، ط١، ٢٠٠٠م.

١٢. نظرية المعنى في النقد العربي: د. مصطفى ناصف، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٥م.

١٣. نيتشه والفلسفة: جيل دولوز، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

الهوامش:

(١)نظرية المعنى في النقد العربي: د. مصطفى ناصف ٦٤.
(٢)انسانية الانسان: رالف بارتون بري، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي ٢١٣.
(٣)الموت والعبقرية: د. عبد الرحمن بدوي ١٧.

(٤)بحوث فلسفية: ندرة اليازجي ٨٦-٨٧.
(٥)الموت والعبقرية: د. عبد الرحمن بدوي ١٢.
(٦)أبو تمام وقضية التجديد في الشعر: د. عبده بدوي ٦٨.
(٧)م. ن ٦٨.
(٨)الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث: د. ماهر حسن فهمي ٢٤٦.
(٩)ديوان أبي تمام ١٥٩/١.
(١٠)الرفض ومعانيه في شعر المتنبي: يوسف الحناشي ٢١٣.
(١١)ديوان أبي تمام ٤٦/٤.
(١٢)ديوان أبي تمام ٥٣/٤ – ٥٤. و ينظر: م. ن ٥٦/٤.
(١٣)الواقعة ٨٣-٨٤.
(١٤)الموت والعبقرية: د. عبد الرحمن بدوي ٨.
(١٥)ديوان أبي تمام ١٤٦/٤.
(١٦)نيشتة والفلفسة: جيل دولوز، ترجمة: أسامة الحاج ٢٢٥.
(١٧)ديوان أبي تمام ٨١/٣. و ينظر: م. ن ١٠٢/٣، و: ٣٣٩/٢، و: ٤٣٣/٢.
(١٨)الصبير: سحاب فوق سحاب.
(١٩)نظرية التأويل: د. مصطفة ناصف ١٧١ – ١٧٢.
(٢٠)ديوان أبي تمام ١٧/٣.
(٢١)الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها: د. محمد حمود ٢٨٤.
(٢٢)ديوان أبي تمام ٦٠١/٤-٦٠٢.
(٢٣)المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية: وليم راي، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز ١٨٤.
(٢٤)ديوان أبي تمام ١٥٧/٣. و ينظر: م. ن ٤١٧/١، و: ٢٥٩/٢، و: ٤٥١/٢.
(٢٥)زؤام: موت سريع.
(٢٦)الموت والعبقرية: د. عبد الرحمن بدوي ٥.
(٢٧)ديوان أبي تمام ٨١/٤.
(٢٨)الانسان ٢١.
(٢٩)ديوان أبي تمام ٢٤٠/٤.
(٣٠)البقرة ٢٨٦.